الفصل الخامس والعشرون

كلمة الشرف بين البدو

استطعت في النهاية اتخاذ الإجراءات لنقل المهر من دير الزور إلى مصر عن طريق حلب وبيروت. إنها رحلة هائلة لأنها تمت مشياً على الأقدام. واستطاع الشخص الذي رافق الحصان ــ على مراحل بطيئة ــ تسليمه بحالة جيدة إلى صديقي في مصر.

في تلك الأثناء تجولنا ـ علي وأنا ـ في المنطقة ووصلنا إلى مراعي الفدعان الذين كانوا قد خيموا في السفح الشمالي لجبال بشرّي غرب الفرات. وهناك أيضاً انتصبت خيمة **محجم بن مهيد** الذي أحسن استقبالنا فقضينا معه أياماً سارة، قاد قبيلته بعدها باتجاه الجنوب حتى منطقة الوديان شرق الحماد. رافقناهم عبر جبل بشرّي وخيَّمنا معهم جنوب هذه التلال. هناك قررت أن أودع ابن مهيد وطلبت من علي أن يشتري ثلاثة جمال قوية وفرسين. وبرفقة علي وفوق ظهور هذه الحيوانات عبرت صحراء الحماد لأصل الرملة ثم إلى دمشق. في اليوم الأول التحقنا بقافلة صغيرة مؤلفة من أربعة رجال وحوالي عشرين جملاً وستة جياد.

من هذا الخليط فقط (لأن البدو لا يركبون الجياد للغزو) اتضح لنا أنهم مسافرون مسالمون. إنهم في الحقيقة تجار جمال من قلب الجزيرة العربية اشتروا

الجمال والخيول الفتية من مختلف القبائل البدوية حول الفرات. ومثلهم موجود في كل مكان في الجزيرة العربية ومصر وسورية والعراق. وفي معظم الأحوال يأتون من بريدة وعنيزة، وهما مدينتان كبيرتان في واحة القصيم في قلب الجزيرة العربية. في فصل الربيع يتجول هؤلاء التجار بين البدو الرحل ويقايضون الرز والسكر والقهوة والأسلحة والذخائر والذهب بالجمال والخيول. بدأ البدو يبيعون الخيول منذ وصول السيارات التي أخذت مكان الحصان لأغراض الغزو.

هؤلاء التجار يسافرون بأمان في الجزيرة العربية ويدفعون لشيخ القبيلة التي يشترون منها الحيوانات مبلغاً ضئيلاً للسماح لهم بمتابعة أعمالهم. كل تاجر يتعامل مع قبيلة خاصة يسافر إليها كل عام.

في اليوم الثاني عندما وصلنا بعض ماء المطر المتبقي في الحفر الصخرية في أحد الأدوية. قررنا أن نستريح لفترة من الوقت ونترك خيولنا تشرب حتى الارتواء. لم نكد نترجل حتى ظهر فجأة بدويان على ظهر جوادين. قفز علي على ظهر فرسه في الحال وهجرنا وحيواناتنا وأسرع في الاتجاه المعاكس للاتجاه الذي أتى منه البدويان ليبحث عن غطاء على ما يبدو.

صاح علي وهو يبتعد: «غزو!» كان البدويان الغريبان مسلحين. ومن الواضح أنهما لم يكونا تاجرين كما أدرك علي على الفور. وظهر فرسان آخرون وبدؤوا يطلقون النار عليّ وعلى عليّ. انحنى المدافع «القوي» فوق رقبة فرسه فبدا صورة مضحكة. كان البدو العدوانيون من الفدعان كما استنتجت من عباءاتهم المخططة. وبدا دفاعنا عن أنفسنا عديم الجدوى لأننا محاصرون. رميت بندقيتي على الأرض وخفضت ذراعي وكفيي نحو الخارج أمام الفرسان الغزاة، إنني لا أنوي المقاومة. وعندما أصبحوا في مجال السمع صحت قائلاً: «إننا ضيوف! إننا نسافر في حماية شيخكم وأخينا محجم بن مهيد».

ولكن القائد ورجاله لم يبدوا أي اهتمام بل أمسكوا بي وبعليّ (الذي قبضوا عليه بسهولة) وضربونا لأننا لم نخلع ملابسنا بسرعة كافية وعندما جردوا علياً من ملابسه صاح قائلاً: «أليس عندك شفقة وأنت تسلب أصدقاء شيخك على هذا

الشكل؟» اكتفى الرجل بالضحك والقول بسخرية: «لا أعرف عمن تتحدثون. إننا لا نعرف أحداً وتركنا الشفقة لله وحده». صاح علي: «ستكون مسؤولاً عن هذا العمل! عليك بالإسراع بإعادة متاعنا وخيولنا وجمالنا، وأبعد يديك عن صديقي وضيف سيدك!». وكرر علي ذلك. رمى الزعيم الثوب الذي كان يفتش جيوبه وأمسك ببندقيته وضرب عليّاً بعقبها ضربة على قفا رأسه جعلته يسقط كالميت وبقي على هذه الصورة جامداً على الأرض. لقد استثار انفعال الفدعان الوحشي وهكذا استمر يكيل الضربات والركلات للجسم الملقى على الأرض.

قفزت على هذا الوحش وحاولت إبعاده ولكن أحد رفاقه ضربني ببندقيته على ظهري فتمايلت وقبل أن أستعيد توازني عاجلتني ضربة قوية كادت تكسر ذراعي. وهذه الضربة نفسها أصابتني على الرأس بقوة جعلتني أفقد الوعي. لابد إنني بقيت كذلك لعدة ساعات وعندما استفقت كان المساء يختفي في أوائل الظلام ووجدت نفسي ملقى على الرمل مجرداً من كل ملابس. لحسن الحظ لم يكن النهار حاراً لأن الطقس كان غائماً، ومع ذلك شعرت بالإرهاق وبأن رأسي يؤلمني وكذلك ذراعي. إن الضربة خدشت عضلات ذراعي فقط ولكنها أصابتني بجرح بليغ فوق الصدغ. وعلى مقربة مني تمدد علي على الأرض وقد أفزعني أنه بدا كالميت. وعلى الرغم من حذري تمايلت حتى وصلت إليه. شكرت الله أن علياً حيّ وقادر على السير. لقد أصابه من الفدعان أكثر مني ولكن خفّة روحه بدأت تعود إليه فقال: (لقد أخذوا مني كل شيء ما عدا قملهم اللعين وبدأ بحك جسمه العاري مؤكداً أنه غادر حلب نظيفاً. قلت له وأنا أضحك: «إنها الحروق الشمسية التي أصابتك بالحكة وليست حشرات أصدقائنا».

لاحظت في الظلمة أن ناراً تشتعل خلف أحد المرتفعات الأرضية على بعد مئات من الأمتار فاستنتجت أن الفدعان يخيمون هناك. كان علي ضعيفاً جداً لا يقوى على السير معي، فاتجهت وحيداً إلى النار، وعندما اقتربت عرفت الفدعان وهم يجلسون حول موقد القهوة فصرخت «دخيل!» قفز أحد البدو وجهز بندقيته للإطلاق ضاغطاً مشط الطلقات إلى داخل البندقية الرافعة بقوة. وبصورة لا إرادية

أغمضت عيني وترنحت عندما سمعت صوت العقيد (القائد) يأمر الرجل بألا يطلق النار، لكن الصدمة القوية جعلت ركبتيّ تنهاران وسقطت على الأرض. فأتى إلي العقيد الذي أنقذ حياتي وبيده قربة صغيرة من جلد الماعز مليئة بالزبدة وجعلني أتناول بضع رشفات منها فشعرت بالتحسن في الحال. عندها قادني إلى النار، وقدم لي بعض القهوة فشعرت من تلك الإشارة أنني أصبحت الآن في حمايتهم.

طلبت منه ملابسنا وأراد أن يعيدها لي لكن الآخرين احتجوا وتذمروا فاكتفيت بعباءتين باليتين وضعت إحداهما على كتفي وعدت إلى علي بالأخرى وبقربة من الزبدة. وبعد أن شرب بعض الزبدة ساعدته وعدنا إلى مخيم الفدعان.

سمح لنا الفدعان بالجلوس بينهم وقدموا القهوة لعلي أيضاً واتضح لنا أن مهاجمينا طيبون. فلو لم نبدأ الجدال عندما باغتونا لكانت النتيجة أفضل. وشعرنا الآن بالأمان كما لو كنا في كنف إبراهيم الخليل.

أثناء حديثنا في تلك الليلة تذكرت رسالة الأمير فواز إلى هاجم باشا، تلك الرسالة التي أحدثت القلاقل المثيرة في حلب. سألت العقيد: «هل تقرأ العربية؟» وعندما أجاب كما توقعت «لا» تابعت قائلاً: «إذن ألا تعرف على الأقل توقيع شيخكم وخاتم الأمير فواز؟» ولم يستطع القائد أمام رجاله أن يقول إنه لا يعرف ذلك أيضاً، لذلك طلبت الحافظة التي يحملها علي والتي تحتوي على الرسالة والكنوز الأخرى.

أخذ الكل يصغي باحترام إلى علي وهو يقرأ الرسالة بحكمة ـ الأجزاء السارة المهذبة منها، وترك إضافاته. وتعلقت عيون الأوغاد بشفتي علي، وشربوا كل كلمة خرجت من بينهما. وعندما انتهى من قراءة الرسالة وقبَّلَ التوقيع والخاتم احتشد الرجال حوله وتفحصوا تلك الوثيقة المذهلة بفزع. ونظراً لجهلهم بالقراءة أمسكوها بالمقلوب.

بدا العقيد قلقاً وتشاور مع الآخرين لبعض الوقت. بعد الكثير من الإيماءات والغمغمات التفت إلينا وأمطرنا بوابل استجواباته السخيفة. وفي النهاية اقتنع بسوء معاملتهم لنا وأمر رجاله بأن يعيدوا لنا متاعنا، وبالطبع تسبب ذلك في تمرد بسيط، لكن العقيد يعرف كيف يشعر رجاله بسلطته. وبعد أن انتهى كل منهم من احتجاجاته على هذا العمل المخلّ بالشرف وتقاليد الغزو أعيدت إلينا كل ممتلكاتنا باستثناء ساعتي التي بقيت في يد العقيد. لاحظ عليٌّ ذلك فصاح بكل جرأة قائلاً: «لقد لطخت شرف شيخك فإذا كنت صديقنا فجرد نفسك من حوائجنا». فأعاد القعيد الساعة التي وضعها عليٌّ في يده وقال لي ـ بلهجة دفاعية: «دعني أعتني بها من أجلك» ولا يزال يعتني بها حتى يومنا هذا!.

بلغ عدد مضيفينا الفدعان سبعة عشر فارساً وثمانية جمالة وصلوا إلى المكان بعد مهاجمتنا. إنهم عصبة من قطاع الطرق الصحراوية النموذجيين. عند تناول وجبة العشاء فرشوا غطاء شداد جلدي كبير كنا نعجن عليه في السابق وأحياناً كنا نستخدمه كعليقة، ومنهلٍ للجياد والجمال، لأنه بالإمكان تعليقه من الحلقات الجلدية الموجودة في أركانه.

صب العقيد لبن جمال من قربة من جلد الماعز في وعاء خشبي وقدمه لكل فرد بدوره. كانت الذلل تربض بالقرب منا ونار المخيم ترمي عليها وهجها الأحمر، وتذوب ظلالها الطويلة في ظلمة الليل. وقد تصورت نفسي للحظة محاطاً بحيوانات خرافية ضخمة.

عندما أغمضت عيني سمعت شخير وتجشؤ رفاق المائدة، ولم أميز بينها وبين اجترار الجمال إلا بصعوبة بالغة. وكان شخير وتجشؤ علي أعلاها جميعاً.

وفي الصباح اقترح الفدعان الانضمام إلينا لدخول منطقة الرولة وسرقة بعض الجمال، ولم يكن بوسعنا ـ علي وأنا ـ سوى قبول هذه المقترحات المرفوضة. كان علينا أن نتحمل صحبتهم على أمل مقابلة بعض بدو الرولة في مكان ما.

بعد يومين خيمنا عند **بئر الجمل**، حيث سقينا جمالنا وخيولنا. وحفر أحد الفدعان حفرة في الأرض وفرش فوقها جلد شداد أحد الجمال، وصببنا ماء البئر إلى هذا المنهل العملي البسيط. بعد أن سقينا حيواناتنا تابعنا رحلتنا في حوض وادي الحجل الجاف. كنا نعبر سهلاً بين فرعي الوادي عندما سمعنا فجأة أصوات رصاصات تصفر فوق رؤوسنا.

انعطف الفدعان فوراً للابتعاد عن مدى الرصاص ولكنهم لم ينجحوا في ذلك، إذا أتبع مهاجمونا الكثيرون وشبه الظاهرين ـ طلقات الإنذار بنيران كثيفة جندلت أربعة من الهاربين في بضع ثوان. ولمّا وجدوا الهروب مستحيلاً والقتال يائساً توقفوا واستسلموا للقوة المتقدمة من ركاب الجمال. وخرج من الأرض أكثرمن مئة منهم أمام أعيينا الحائرة. وقع الفدعان في الكمين لأنهم أهملوا إرسال مجموعة استطلاع أمامهم.

عرفت على الفور أن القادمين الجدد من الرولة. صحيح أن قبيلة السبع تعرف المنطقة جيداً ولكن الرولة فقط هم الذين يغطون الحقل بهذا العدد الكبير من جمال السباق. السبع مثل الفدعان يفضلون الجياد.

صاح (منان) قائد الفدعان الذي اعتراه الهلع «ليكن الله معنا». إذ ظن أنه هالك لا محالة وأن لي كل الحق في انتهاز هذه الفرصة لمعاملته بالمثل ولكنني طمأنته بقولي: «لقد عقدنا سلاماً معكم وسأقول لقائد هؤلاء الرولة أنكم بالفعل شملتمونا بحمايتكم حتى نصل بأمان إلى مراعي أصدقائنا. سأطلب منه أن يسمح لك ولرجالك بأن تخيموا هذا المساء بأمان مع الرولة». أجاب قائد الفدعان بسرور: «إنك تخفف عني وأقسم لك إنني أعدت لكم كل شيء». ولدهشتي رأيت في يده الممدودة بُوصَلَتي الثمينة التي ظننت أني فقدتها.

واقترب الرولة يتمايلون على ظهور جمالهم النحيلة يتقدمهم فارس يمتطي فرساً حمراء، ويغطي وجهه بكوفيته حتى لا أرى سوى عينيه عند التلاقي، ووصلني صوته المخنوق: «من أنت يا راكب الفرس الزرقاء؟» وجواباً عن سؤاله كشفت عن وجهي وقلت: «إنني أسلم لك نفسي وأضع كل هؤلاء الرجال (مشيراً

إلى علي والفدعان) تحت حمايتك باسم أخي وزعيمك الأبر فواز أيها العقيد!». ودفع الرولي قدميه في جانبي الفرس مما جعلها تندفع بانفعال، وجعل من الصعوبة بمكان أن يسيطر عليها راكبها. خلع كوفيته واندهشت عندما رأيت الأمير فوازاً نفسه ولكنه غاضب جداً. قال لي الأمير: «ابتعد يا أخي كي لا يكون دمك مسؤولاً عن أعمالي. لقد حاصرت ـ كالنمر ـ هؤلاء الفدعان الكلاب الذين يتجرؤون على النباح في مراعي الرولة».

كان الأمير فواز غاضباً تتملكه نوبة القتال الشعلانية. جرّ عباءته التي تدلت على عجز فرسه وكشف عن ساعديه وصدره ونقّل بندقيته من يد ليد بينما أخذت فرسه تطفر تحته. بدت المناقشة معه عديمة الجدوى وكل ما أستطيع القيام به هو اللجوء إلى شرفه البدوي فقلت له:«هؤلاء الرجال الذين تراهم امتنعوا كلية عن سفك الدماء. ورافقوني واثقين من أنك ستمنحهم الحرية والأمان من أجل الصداقة القائمة بيني وبينك».

لم يكن لدى الشيخ الشاب كلمات جوابية ولكن عينيه تكلمتا ببلاغة مؤثرة. إنهما ممتلئتان بالحقد والغضب الجامح. وغالباً ما أدار فرسه المسكينة حولي ونفسه نهب للعاصفة المكبوتة في داخله. وأخيراً طلبت منه أن يكبت غضبه وأن يكون صادقاً مع نفسه. وفجأة توجه إلى جماعته راكبي الجمال الذين انتظروا على مسافة منا. وشعرت بثقتي الغريزية أن نوبة غضبه قد انتهت وأن أصحابي الفدعان في أمان. وعلى الرغم من كل ذلك لم يكن بوسعي إلا الإعجاب به. كان بالإمكان أن يقول لي: «إنسَ يا عزيز أنك عزمت على حماية هؤلاء الفدعان قاطعي الطرق» ولكنني تلفظت بعبارة «دخيل أمام الله» في طلبي ولم يسمع هذا الطلب أي إنسان سواي وسواه، ولكن الله سمعه وهذا ملزم للبدوي حتى ولو كان قائد عصابة سلب ونهب.

وأكدت للفدعان أن الأمير فوازاً قد قبل حمايتهم، وجاء التأكيد الفوري لذلك عندما رأوا فرسان الرولة يترجلون ويبدأون بإقامة الخيم. وبدأ الفدعان بدورهم بذلك. ولكنني مراعاة للمراسم بقيت معهم طيلة هذه الفترة. وجاء الأمير

فواز بصحبته بعض رجاله وجلس قرب نار مخيم الفدعان. ولم يكن باستطاعة أحد أن يخمّن من سلوكه أن متاعب قد حصلت. كان هادئاً تماماً وشكر أعداءه علىمرافقتي وحمايتي في رحلتي.

وبعد أن أتمت القهوة دوراتها المعتادة ذكر الفدعان خسائرهم. كلفتهم نيران الرولة فرسين وذلولين. وعلى الفور أعلن فواز أنه سيعوضهم بستة من أفضل ذُلُلِه. لم يكن مضطراً للتعويض أبداً، ولكن شهامة الشيخ العربي تحتم مثل هذا الكرم.

وعندما تفرقت هاتان المجموعتان المتنافرتان في صباح اليوم التالي احتاط الأمير فواز للأمر بضم أحد حراسه العبيد إلى الفدعان لكي يتأكد من وصولهم إلى أول هضبة في أبي رجمين خلف منطقة الرولة.

* * *